العرب
الإثنين 2021/01/11
السنة 43 العدد 11937

من جلجامش إلى زنوبيا.. فنان سوري يرصد أبطال الملاحم بفسيفساء الخشب

دمشق – يستحضر معرض فسيفساء الخشب للفنان رؤوف بيطار في قاعة المعارض بدار الأسد للثقافة باللاذقية، رموز الحضارات وأبرز الشخصيات الملحمية التي عرفتها سوريا، والتي تذكر بعظمة التاريخ العريق من خلال القيم الفنية والجمالية.

يقدم المعرض الجديد للفنان 50 عملا نفذت بطريقة الفسيفساء على الخشب، وجسدت أبطال الملاحم الأشهر التي تعاقبت على منطقتنا عبر التاريخ من جلجامش والإله بعل والآلهة عشتار والأم الأوغاريتية، إلى نبوخذ نصر والملكة أوروبا وسرجون الآكادي وأبولودور الدمشقي والملكة زنوبيا، في سرد فني جمالي وتاريخي لعظمة هذه الحضارت المتعاقبة، وحرص بيطار على تقديم شخصياته بشكل يحاكي النسخ الأصلية، مستعينا في ذلك بما وثقه الباحثون ضمن هذا المجال.

> المعرض يقدم 50 عملا نفذت بطريقة الفسيفساء على الخشب، وجسدت أبطال الملاحم الأشهر التي تعاقبت على سوريا

واستعان بيطار في أعمال معرضه بمقولات تاريخية خالدة كوصية بعل للسوريين وللعالم قبل أكثر من خمسة آلاف عام "حطم سيفك وتناول معولك واتبعني لنزرع السلام في كبد الأرض.. أنت سوري وسوريا مركز الأرض"، وأخرى للملك السلوقي السوري أنطيوخوس الثالث "يا سوري.. الأنا لذاتك ونحن لنبني الوطن.. فأين أنت"، وغيرها من المقولات المستلهمة من التاريخ.

واعتبر بيطار أن ما يقدمه ينبع من واجبه ودوره كسوري ابن هذه الأرض في نقل وصايا السوريين منذ الآلاف من السنين لتحكي عظمة بلادنا عبر التاريخ في وجه الغرباء الذين حاولوا تخريبها ونهب آثارها وتدمير متاحفها وسرقة وثائقها لطمس حضارتها.

وفي حديثه عن عمل الفسيفساء من الخشب وهي الفن العريق الذي عرف بمادته من الحجارة، يقول بيطار "على الشخص الذي يقدم على هذا الفن أن يفهم جميع الخطوات، ويتعرف على المادة المصنعة أو المادة التي سيتعامل معها من أجل تصنيعها".

ويضيف "بالنسبة إلى الخشب أعلم تفاصيله لأنني درست في المعهد الزراعي كيف أختار الخشب ما عدا نوعين أو ثلاثة لا يجوز أن أستخدمها، ويوجد درجات وطبقات وهذه الطبقات تمتاز بتعدد الألوان، فخشب التوت يوجد في شكل عضلاته انسيابية باللون المؤكسد مثل اللون الرمادي، ويوجد عدة حيل للتعامل مع الخشب ومن الصعب أن يذكرها الشخص لأنها من ضمن خطة الإنتاج وهذه الألوان".

ويتابع الفنان "أولا، نترك الخشب على طبيعته، وثانيا، من الشروط الهامة أن يكون لديه نسبة جفاف عالية ويجب أن يكون خاليا من الفطريات والإشنيات وبعض أنواع الدود، وهذا يكتشف عندما نحوله لحبيبات بحجم 1 أو 3 سنتمترات، وبعدها نعرّضها للحرارة لقتل أي طفيليات في الخشب، إضافة إلى وجود ناحية مهمة كثيرا وهي من أصعب المراحل التي لم نستطع حلها، ففي الساحل السوري نسبة الرطوبة أكثر من نسبة الرطوبة بالداخل والخشب المصنع في اللاذقية له نسبة رطوبة عالية ولا يجب ترحيله إلى الشام أو إلى الداخل إلا بعد صناعته وتغطيته بمادة الجلاتين الكثيفة".

ويكشف بيطار أنه يستوحي أعماله من التاريخ ومن لوحات أصلية موجودة مستعينا بوثائق خبراء كالباحث التاريخي الراحل الدكتور وديع بشور، الذي قدم شرحا مفصلا عن الخلفية التاريخية والحضارية لكل عمل، ليعيد بعد ذلك صياغته من جديد بروحه ومن خشب شجر هذه الأرض الغنية بتنويعاتها وألوانها وخصائصها، كالزيتون والليمون واللوز والتوت، الذي يتفرد بكثرة ألوانه ليصار بعد ذلك إلى التنشيف والتوضيب والمعالجة.

وأشار بيطار إلى أنه لم يتلق دراسة أكاديمية للفن، لكنه امتهن الرسم الميكانيكي وانجذب إلى فن الفسيفساء بعد اطلاعه على روعة وجمال اللوحات الفسيفسائية الحجرية في سوريا مختارا الخشب بدل الحجر، رغم الصعوبة الإضافية التي تحتاجها هذه الخامة من دقة متناهية وعدم وجود أي فراغ، بعكس الحجر الذي تعالج الفراغات فيه بمواد وطرق مختلفة.

وبيطار الذي احترف هذا الفن منذ أكثر من 15 عاما، له العديد من المعارض المحلية، وقدم لكنيسة اللاتين باللاذقية عددا من اللوحات الضخمة، ويعكف حاليا على تصنيع أدوات تعتمد على علم الطاقة وتستخدم في العلاجات عبر التدليك الخارجي العام المحفز للنهايات العصبية، حيث يقدم في معرضه خلاصة دراسته في هذا المجال لتصنيع نماذج جديدة، آملا بتحقيق نتائج طيبة بعد استخدامها من قبل أطباء ومعالجين مختصين.

استعادة تاريخ عريق

الكتابة الشذرية أفق لتجديد الأدب

شعراء المهجر أهم من استلهموا الصوفية

الناقد المغربي محمد المسعودي: معاناة الناقد لا يمكن إنكارها

يشكل المشهد الثقافي والإبداعي في المغرب، بثراء عطاءاته وتجلياته في مختلف مجالات الثقافة والفكر والإبداع، حضورا قويا على المستوى العربي، حيث نجد الكثير من الأدباء المغاربة يجمعون بين كتابة الأدب والنقد، ما يوفر لهم رؤية أكثر شمولية، على غرار الناقد والكاتب المغربي محمد المسعودي. "العرب" كان لها هذا الحوار معه للتعرف على جانب من مسيرته ورؤاه وأفكاره النقدية والثقافية.

محمد الحمامصي
كاتب مصري

محمد المسعودي يجمع بين النقد الشعري والسردي للقصة والرواية والكتابات التراثية وأخيرا أدب الرحلة، هذا فضلا عن كونه شاعرا وقاصا ومتابعا يتمتع بحضور فاعل ومؤثر داخل الحراك الثقافي، وقد فاز أخيرا بجائزة ابن بطوطة لأدب الرحلة - فرع الدراسات عن كتابه "الرحلة ما بعد الكولونيالية - دراسة في يوميات رحالة عرب معاصرين".

ومن مؤلفات المسعودي المهمة نذكر "اشتعال الذات: سمات التصوير الصوفي في كتاب الإشارات الإلهية" لأبي حيان التوحيدي، و"فتنة التأويل: في قراءة متخيل الرواية العربية الجديدة"، "الكتابة الشذرية في الأدب المغربي الحديث.. نماذج ومشارب"، حيث تنوعت مباحثه، ما وفر له رؤية بانورامية للثقافة المغربية.

في البداية يوضح المسعودي أن المرتكزات النقدية الرئيسة، التي انطلقت منها مسيرته القرائية للأدب في أشكاله وأنواعه العديدة شعرا وقصة ورواية ورحلة وتصوفا، تمحورت حول تصور واحد يعدّ بؤرة العملية النقدية: قراءة النص الأدبي واعتباره منطلقا واحدا وجوهريا لعملية الفهم والتأويل، ومن هنا تبقى المناهج المتوسل بها في المقاربة لاحقة على النص وأداة لإغناء مقاصده وتجليتها للمتلقي، والكشف عن جمالياته الفنية ورؤاه الإبداعية.

مشهد متنوع

حول الفروق التي خلص إليها في دراسته الفائزة بجائزة ابن بطوطة "الرحلة ما بعد الكولونيالية"، من حيث الرؤية والكتابة التي تكشفت له في نصوص الرحالة العرب المعاصرين والمقارنة بينهم وبين الرحالة القدامى، يقول المسعودي "تختلف نصوص الرحالة المعاصرين من حيث الرؤية وصيغ الكتابة حسب مجال انشغال كل واحد منهم واهتماماته الفكرية والأدبية، ورؤيته الفنية وحساسيته الجمالية. ولكن هناك قسمات مشتركة تجمع هذه الرحلات، حسب ما انتهيتُ إليه في اشتغالي بموضوع 'الرحلة ما بعد الكولونيالية'. فقد توفرت هذه الرحلات المشتغل بها على مواقف ورؤى تنبئ عن وعي بمدى ما تعانيه الأمة العربية، والشعوب في كافة أرجاء الأرض من أثر الاستعمار".

ومن هنا كان شجب بعض الظواهر السلبية والتنبيه إليها، وكان نقد ممارسات بعض الدول القوية "التي ما تزال تسلك سلوك الاستعمار"، وكان الالتفات إلى مشكلات الشعوب المستضعفة، والاهتمام بالثقافات الأخرى غير الأوروبية إعلانا عن رؤية ما بعد كولونيالية ثاوية بين طيات هذه الرحلات، وبالتالي كانت هذه الإشارات الطفيفة، أو التصريحات الواضحة منطلقنا لدراسة هذه الأعمال، ومن ثم الوقوف عند أهم قضايا ما أسميناه "الرحلة ما بعد الكولونيالية"، وأبرز خصائصها الفنية.

ويضيف المسعودي "ثم إن هذه الرحلات جميعا صاغها مبدعون ذاقوا مرارة المنفى، وعاشوا بعيدا عن أوطانهم أو عاشوا متنقلين ما بين وطنهم الأصل وبلاد الغرب للتدريس أو العمل، ما عدا قلة منهم لم تعرف هذه الوضعية، ومن ثم كان من الطبيعي أن تكون كتابتهم الرحلية تعتني بسؤال الأنا والآخر، وبإشكالية الهوية الحضارية، وخصوصية الأنا في علاقتها بثقافة الغير. وغيرها من القضايا التي يتناولها الأدب والفكر في زمن ما بعد الكولونيالية.

ويرى المسعودي أن القصة القصيرة بالمغرب تشهد حضورا قويا، وتغتني يوما عن يوم بأصوات جديدة تضاف إلى الأصوات الراسخة في المشهد الثقافي، وتتنوع الحساسيات والاتجاهات القصصية بهذا المشهد بحيث نلفي كتابا ينتصرون للاتجاه الواقعي وينطلقون من سماته في كتابة القصة، ومنهم من نحا نحو الفانتاستيك أو الواقعية السحرية أو التعبيرية لصياغة نصوصه الإبداعية. كما أن القصة وباعتبارها فنا يتميز بالدينامية والانفتاح، ولا قواعد ثابتة له، يفسح المجال للتجريب القصصي. وعلى الرغم من أن الرواية ذات حضور قوي في المشهد الثقافي العربي العام، إلا أنه يمكن القول إن القصة القصيرة في المشهد المغربي أكثر حضورا وقوة.

ويضيف "لقد كانت مختلف المدن المغربية قبل انتشار كوفيد – 19 وتحجيمه للحركة وتغييره لواقع الحياة، تشهد مهرجانات ولقاءات كثيرة للقصة وللقصة القصيرة جد، في جنوب المغرب وشرقه وشماله ووسطه وجنوبه. وكانت هذه اللقاءات تغني التجارب الكتابية وتسهم في بلورة رؤى حول القصة في الندوات التي تعقد حول هذا الفن الجميل والممتع".

ويؤكد المسعودي أن كتابة قصيدة النثر تطغى على المشهد الشعري المغربي المعاصر، وهو الفن الذي أصبح المتن المهيمن في الصحافة الأدبية وفي المواقع الإلكترونية. غير أن هذا المشهد ما يزال يعرف، أيضا، حضورا بينا لقصيدة التفعيلة والقصيدة العمودية، فضلا عن أشكال مختلفة من الزجل الذي يصاغ بالدارجة (العامية) المغربية القريبة من العربية الفصحى، أو باللهجات الأمازيغية، والحسانية الصحراوية.

ولعل هذا التنوع في المشهد الشعري يجعله يتميز بالحيوية والحركية. وتعدد الأشكال الإبداعية والفنية. ويبدو أن قصيدة النثر تستجيب لهواجس الأجيال الجديدة منذ ثمانينات القرن الماضي جماليا، ومن ثم كان لها الحضور الطاغي في النشر والعناية في اللقاءات والمهرجانات الشعرية.

اشتغال نقدي

من بين الكتب المهمة التي قدمها المسعودي كتاب "الكتابة الشذرية في الأدب المغربي الحديث"، وهنا يوضح ما عناه بالكتابة الشذرية وأبرز ما خلص إليه وأبرز الأسماء التي تكتب هذا النوع، يقول "قصدت بالكتابة الشذرية نوعا من النصوص المكثفة القصيرة التي تصاغ نثرا أو شعرا وتتميز بالنفس التأملي العميق، والانشغال بالقصد الدلالي المتعدد في حمل رؤية مبدعها. وهذا النوع من الكتابة صار يستقطب الشعر والنثر على حدّ السواء، مع مبدعين ينتمون إلى أجيال مختلفة. وهذا النوع الأدبي بدأ في المغرب مع محمد الصباغ وإدريس الجاي في خمسينات القرن العشرين، لكنه استعاد عنفوانه مع الأدباء الجدد الذين اهتموا به، وصاغوا تجاربهم في سياقه بدءا من التسعينات، وازداد غنى وتنوعا في الألفية الثالثة".

ويضيف "أبرز ما انتهت إليه هذه الدراسة من خلال قراءة متن هام من متون هذا النوع الأدبي، أن الكتابة الشذرية تنزع نحو تجديد الكتابة الأدبية ومنحها أفقا جديدا للاشتغال الذي يضفر الرؤى الفلسفية التأملية بأنساغ البلاغة الشعرية، أو الحمولة الأدبية التي تنحاز إلى الإشارة والتلميح والتكثيف. ومن يلقي نظرة على هذه الكتابة يرى أنها تتشرب منابع متنوعة لتشكيل عوالمها التخييلية ومقاصدها وأبعادها الدلالية والترميزية. والأسماء التي تبدع في هذا النوع الأدبي بالمغرب كثيرة".

> المناهج المتوسّل بها في المقاربة النقدية لاحقة على النص وهي أداة لإغناء مقاصده وكشف جمالياته للمتلقي

يرى المسعودي أن "الاشتغال بالتراث الصوفي في التجربة الشعرية والسردية العربية الحديثة ما يزال خجولا وضئيلا، وما تم استثماره فيها استجاب لرؤى بعض المبدعين الفنية أو الأيديولوجية الفردية، ومن أفق محدود تمثل في استثمار بعض الشخصيات الصوفية في الشعر أو السرد لحمل دلالات معينة، أما استثمار جوهر الخطاب الصوفي وغناه في العملية الإبداعية، وتشرب روحانيته، وتوظيف أبعاده الهائلة في الإشارة والإلماح والقدرة على توليد الدلالات والظلال البعيدة فما تزال قاصرة".

ويلفت إلى أن قراءة الأدب العالمي، وخاصة الأدبين الهندي والياباني، تبين درجة الاستفادة من التراث الصوفي في الديانات الهندوسية والبوذية، حيث تمثله الأدباء وانتصروا به لقيم روحية وتمثلات واسعة الدلالة. أما في أدبنا العربي فنادرا ما يفلح المبدع في تشرب روح التصوف وتمثّلها في أدبه. وحسب وجهة نظره كانت محاولة جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة وبعض شعراء المهجر أهم محاولة في استلهام تراثنا الصوفي العربي مع تطعيمه بمؤثرات ثقافات أخرى.

ويشير المسعودي إلى أن معاناة الناقد حقيقة قائمة لا يمكن إنكارها، خاصة أن المطابع وتطور وسائل الاتصال الحديثة جعلت الساحة تزخر بنصوص من شتى الأشكال والألوان. وفي رأيه إن هذه الحركة بقدر ما هي مهمة ودالة على الحيوية، بقدر ما تجعل مهمة الناقد شديدة الصعوبة لأنه يهتدي بشق الأنفس إلى الإبداع الأصيل والراقي.

ويتابع "إن نسبة هامة مما ينشر - للأسف الشديد- يتميز بالضحالة والإسفاف وضعف اللغة وغياب رؤية فنية وإبداعية لصاحبه. وهذا ما يجعل الناقد من جهة غير قادر على المواكبة، ونافرا من مواكبة ما ينشر من جهة أخرى، لأنه يعلم أن أصحاب هذه الإصدارات لا ينتجون نصوصا تتوفر على الحدود الدنيا التي يتطلبها هذا الفن الأدبي أو ذاك، هذا فضلا عن أن النقد الأدبي العربي بدوره، يعاني من تخبط واضح بسبب كثرة المناهج الغربية الوافدة التي يسعى إلى تمثلها واستثمار نتائجها في تطبيقاته دون أن يتمكن من خلق نظرياته الخاصة الأصيلة".